

الفصحى المعاصرة

١

يرجع تاريخ الفصحى إلى بضعة عشر قرنًا، وقد اجتازت في هذا التاريخ الطويل مراحل وأطوارًا متباعدة، ولعلَّ أول مرحلة هي مرحلة الدين الخفيف الذى تطوّر بالفصحى من لغة وثنية مادية إلى لغة ذات دين سماوى يحمل ما لا عهد للفصحى به من قيم روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية. وطبعى أن يحدث هذا الدين فى الفصحى تطورًا هائلًا فى معانيها وألفاظها. وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأ دلالاتها ابتداءً، مثل الإسلام والإيمان والكفر والشرك والصوم والزكاة والصلاة إلى غير ذلك من كلمات الدين الخفيف، وهى تكثُر جدًا إذ تشمل كل ما اختاره للشعائر الدينية وللعقود والمعاملات من ألفاظ متنوعة الدلالات. ومما لا ريب فيه أن القرآن الكريم يُعدُّ بكلِّ سورة ابتداءً لشريعة سماوية ولغة دينية باهرة وأسلوب بيانى معجز يأخذ بمجامع القلوب.

وسرعان ما بدأ عصر الفتوح الإسلامية واستقر العرب فى الأمصار وأخذوا يتناولون الحياة تناولًا جديدًا. فقد تحضروا وسكنوا القصور ونعموا بالفُرش والملابس والمطاعم والمشارب، وأقبلوا على التزوّد بما كان لدى الشعوب المفتوحة من معارف وثقافات. وفى أثناء ذلك كانت الفصحى تتطور وتتحوّر ألفاظها وتتسع للتعبير عن دلالات حضارية وعلمية جديدة. وكم نُحت واشتقَّ من مئات الألفاظ للحضارة المادية وأدواتها الكثيرة، وبالمثل كم نُحت واشتقَّ من مئات الألفاظ للعلوم والمعارف، وفتحت الفصحى أبوابها لألفاظ أعجمية كثيرة عربتها، تارة تحوّر فيها: فى الحروف والحركات، وتارة لا تحوّر، وقد عقدوا لها كتبًا مفردة مثل كتاب المعرّب للجواليقى وخصّوا المصطلحات العلمية بمعاجم متعددة، على نحو ما هو معروف عن كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى.